الإتحاد الأقنومي، ليتورجياً

دكتور

جورج حبيب بباوي

ديسمبر ٢٠١٣

www.coptology.org

الليتورجية والاتحاد الأقنومي

المسيحية هي استعلان الله في الجسد الإنساني، ولكن مع صدق هذه العبارة، فإن تعبير "الجسد الإنساني" هو تعبيرٌ مجرد، ولذلك أضافت كنيستنا أم الشهداء في ليتورجيتها عبارة "تجسد وتأنس" مؤكدةً أنه صار معنا كواحدٍ مِنَّا "بكراً بين أخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٥).

وجاء تجسد ابن الله بتغييرٍ تام في علاقات كانت مستحيلة على التغيير.

كان ولا يزال أول تغيير هو شركة الإنسان –مهما كان هذا الإنسان– في حياة الله، ولذلك لم يكن غريباً أن يبدأ إنجيل يوحنا بالكلمة اللوغوس الخالق والواهب الحياة لكل الكائنات، والذي ينير الحياة العقلية لكل الكائنات العاقلة بنور الحياة، وهو نور المعرفة الذي يشرق في الظلمة، ظلمة جهل الإنسان بالله (يوحنا ١: ٤ – ٥).

لكن الكلمة / اللوغوس جاء في الجسد حسب تعبير الرسالة الأولى ليوحنا (١ يوحنا ١: ١ – ٤)، وسكن بيننا (يوحنا ١: ١٤)، أو حسب الدقة التي تميَّز بها القديس كيرلس السكندري "سكن فينا"، أي صار كواحدٍ منَّا (يوحنا ١: ١٤) وجاء التجسد حسب الانجيل: "مملوء نعمة وحقاً" (يوحنا ١: ١٤)، ولكننا لم نقف عند الكلمة الأولى "النعمة"، ولم نسترد معنى الكلمة الثانية "الحق"، مع الأخذ في الحسبان أنها ليست متصلة بشهادة يوحنا المعمدان، بل بتصريح الرب نفسه "أنا هو الطريق والحق والحياة" (يوحنا ١٤: ٦).

ولكن العقل الإنساني صادر "النعمة"، وجعلها محتوىً عقلياً، ولم يقبل أن يكون يسوع بالذات هو النعمة، أي شخص أو أقنوم الكلمة؛ بالرغم من أن كل البشارة من السطر الأول في الإصحاح الأول في إنجيل يوحنا "في البدء كان الكلمة" حتى "الكلمة صار جسداً" ليست عن محتويات أو معانٍ أو تحديدات عقلية، بل عن شخص الكلمة

الذي صار جسداً.

"النعمةُ" هي علاقةٌ جديدةٌ وُهِبَت للإنسانية في "الكلمة"، وهي التنازل الإلهي الذي وَضَعَ النعمةَ مقابل ما هو كائن.

"الناموس بموسى أُعطي،

أمَّا

النعمة والحق، فبيسوع المسيح صارا" (يوحنا ١: ١٧).

ليس حسب الناموس:

الإستعلان الجديد ليس حسب الناموس أو الشريعة. وإعادة النعمة إلى مربع الشريعة ليس مجرد خطأٍ في فهم كلمة "نعمة"، بل خطأٌ في فهم حركة الشخص نحونا، أي حركة الأقنوم الذي لم يطلب أحدٌ منه أن يصير جسداً، حركة الحرية التي سوف يعبِّر عنها هو نفسه في (يوحنا ١٠: ١٨) عن امتلاكه حياته: "ليس أحدٌ يأخذها مني" وأضاف: "لي سلطان أن أضعها"، وهي حياة شركة مع الآب "هذه الوصية قبلتها من أبي" (يو ١٠: ١٨).

"الحياةُ أُظهرت" (١ يو ١: ٢)، أي أن الحياة الأبدية التي كانت عند الآب، وُهِبت لنا. النعمةُ أبديةٌ؛ لأن الشخص أبديٌّ، والهبةُ هي "شركتنا نحن مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح" (١ يوحنا ١: ٣).

ويجب أن نلاحظ أن كلمة "النعمة"، وإن كانت دائماً بصيغة المؤنث في العربية، إلَّا أن المحتوى والعلاقة هي مع الشخص، مع الأقنوم، ولذلك يمكننا أن نقول: "النعمة" الذي هو يسوع.

هكذا بدأت حركة النعمة في البشارة تعيد للزواج مكانته في قانا الجليل؛ إذ يحتفل الكلمة المتجسد بتحويل الماء إلى خمرٍ، ويُظهِر مجده كخالقٍ، ومع مسيرة الكلمة المتجسد لأجلنا يأتي بعد مسحته في الأردن إلى لقاءٍ مع مُعلِّم إسرائيل عن الولادة الجديدة "من الماء والروح"، فهو نفسه وُلِدَ من جديد بالمِسحة حسب تعليم آباء الإسكندرية أكليمنضس وأوريجينوس، ولكن التعليم غاب بسبب حرارة الصراع ضد

الأريوسية.

لقد شاركنا ميلادنا الجسداني، وأخذ هو نفسه ميلادنا الروحي كوسيط وبداية. ولكن حرارة الدفاع الأرثوذكسي، جعلت هذا الفصل بالذات من مسيرة الكلمة يغيب عنا، فكيف يُولد من فوق وهو واهب هذه الولادة؟ ولكنه آدم الثاني الذي بدأ من حيث سقط آدم الأول، وجاء لكي يمحو السقوط وكل أثاره، ولذلك يمحو صهيونية العبادة في حوار مع السامرية: "لا في هذا الجبل ولا حتى في أورشليم نفسها يطلب الآب السجود" (يوحنا ٤: ٢ – ٤).

تأمَّل:

"الشريعة أو الناموس بموسى أُعطي".

الآن:

"النعمة والحق بيسوع المسيح صارا".

لا سجود في أورشليم. لقد انتهت الملحمة القديمة؛ لأن التجسد لم يعد مكاناً، بل:

الإنسان نفسه.

وجاء اسطفانوس بعد الكلمة، وقال نفس الشهادة: إن الله لا يسكن في بيوت أو هياكل مصنوعات الأيادي (أع ٧: ٤٨)، وكان الشهيد يتكلم عن هيكل سليمان. فقتلوه رجماً.

لا سجود في أورشليم

وبذلك انتهى ما تعارَف عليه اليهود باسم "عِ بُ و دَ ة" وهي تقابل تماماً كلمة "عبادة" في اللغة العربية؛ لأن الإنسانَ عبدٌ، لكن التجسد لا يسمح بأن تكون الصلاة، ولا حتى السجود "عبادة"، ولذلك لم نجد كلمة "عبادة" إلَّا في الترجمة العربية للعهد الجديد فقط. اليونانية والقبطية حفظت لها كلمة **خدمة**]em]i[

لماذا لا توجد عندنا بعد تجسد الكلمة "عبادة"، بل "خدمة"؟

والجواب هو للرسول بولس نفسه: لقد جاء الابن له المجد، وهو صورة الله

المساوي للآب

- أخذ صورةَ عبدٍ
- صار في شبه البشر
- وُجِدَ في هيئة إنسان
- دخل عرين العبودية، ثم عرين الموت
- وضع نفسه، أي قدَّم ذاته
- أطاع حتى الموت، موت الصليب.

هنا انتهت العبادة والعبودية معاً، ولذلك يقول رسول يسوع:

- لذلك رفَّعَهُ الله
- أعطاه اسم يهوه، فهو الاسم الذي هو فوق كل اسم
- لكي تجثو باسم يسوع كل ركبةٍ.(راجع فيلبي ٢: ٩).

ليس في هذا الجبل، ولا في أورشليم، بل "الساجدون الحقيقيون" وهم من؟ الساجدون كعبيد في أورشليم أو على جبل السامرة جرزيم، هؤلاء "يسجدون لما لا يعلمون"، ولكن الحقيقيون يسجدون "لما نعلم؛ لأن الخلاص هو من اليهود"، أي حسب استعلان الانبياء. الساجدون الحقيقيون من اليهود سوف يسجدون للآب بالروح، أي بالروح القدس، وبالحق، أي بيسوع حسب شرح القديس كيرلس الكبير لأن في السجود: "ويعترف كل لسان أن يسوع هو ربٌّ لمجد الله الآب" (فيلبي ٢: ١١). لكن ذلك المجد ليس يسوع وحده، بل هو حسب قول يسوع نفسه: "أنا ممجَّدٌ فيهم" (يوحنا ١٧: ١٠) لأنه هو الذي وَهَبَ لنا هذا المجد. "وأنا قد أعطيتهم المجد الذي قد أعطيتني" ولاحظ: "ليكونوا واحداً فينا"، ثم "ليؤمن العالم أنك أرسلتني" (يوحنا ١٧: ٢٢). إذن، فقد رُفِعَت العبودية، وظهر المجد فينا، "مجد البنوة"، مجد الولادة من فوق، ومجد عطية روح المجد، الروح القدس.

الصراع حول أقنوم المتجسد:

الذين كرهوا الجسد والإنسانية قالوا إنه إلهٌ فقط؛ لأن نُسكَ هؤلاء كان تطرفاً

ومحبةً مريضةً بأحادية الوجود، أي ذلك الوجود الأحادي الذي يقبل ما هو إلهي فقط، ويرفض تماماً ما هو إنساني. وزعيم هؤلاء هو أوطاخي وسبقه أبوليناريوس.

الذين أرادوا ما هو إنساني –لأن الوثنية هي البحث الدائب عن الانسان فقط وجعل حتى الآلهة بشراً تحارب وتزني وتقتل– قالوا: إنه إنسانٌ فقط. وزعيم هؤلاء هو أريوس، وإن كان ظهر لهم زعيم جديد في أمريكا هو تشارلس رسل (ق ١٩).

الذين أرادوا مطاردة كل ما هو إلهي –لأن الانسان نجس وشرير، ولأن هؤلاء كانوا يحلمون بعلاقة خارجية هي مجرد صداقة، أو عِشرة، أو علاقة تعود بالإنسان إلى الشريعة– أنكروا الاتحاد بين ما هو إلهي وما هو إنساني في يسوع. ولم يكن نسطور غريباً عن الكنيسة، بل جاء من الرهبنة التي تعاف الجسد مثله مثل أوطاخي، الذي جاء من مدرسةٍ ترهب الاتحاد، فهو لا يليق بالله حسب مقاييس العقل الإنساني؛ لأن هذه المدرسة وَضَعَت الله تحت مجهر تحديدات فلسفية ورأت عند أرسطو شيخ وأستاذ فلاسفة اليونان أنه يستحيل أن يوجد جوهر مع جوهر آخر من طبيعة أخرى في شخص واحد. لكن "الكلمة صار جسداً وسكن فينا"؛ لكي يكسر كل قواعد المنطق، بل لكي يتجاوز الشريعة الموسوية نفسها، ولذلك اتحاد طبيعتين مختلفتين تماماً ليس عملاً إنسانياً يقدر عليه البشر، بل هو عملٌ إلهيٌ له دائرة لا تخضع للفحص العقلي.

ولكن تجسد وتأنس ابن الله دخل دهليز نقاشٍ حادٍ فلسفيٍّ عن الطبيعتين، وغاب من الوعي أن حقيقة تأنس ابن الله تتجلى في أنه يحيا بيننا، فقد صار "رأس الجسد" بدايةَ خلقةٍ جديدةٍ، تتكون بشكلٍ جديدٍ.

ولكن التجسد دخل نفقاً آخر حول معاني الكلمات: رأس – بِكر – بدء – وسيط، ثم جاء طوفان العودة إلى الشريعة، وإلى وضع جدول عمل يعمل الابن من خلاله، فوُلِدت عقيدة الكفارة ودفع ثمن الخطايا، ووُلِدَ تصور العدل الإلهي بنفس الصورة التي نشأ وتطور بها العدل الأرضي، وسبق ذلك صراعٌ آخر حول حقيقة ما ورثناه من آدم.

كان للشرق اتجاهٌ كتابيٌّ صحيح، وهو وراثة الموت، ولكن الحضارة السائدة لم تكتفِ بالموت، بل لا بُد من ذنبٍ يواكب الموت. وجاء التعليم الأوغسطيني بوراثة خطية

وذنب آدم لكي يضع أولَ لبنةٍ في طريقٍ طويل سوف يصل إلى غايته في عصر الإصلاح، بالتعليم عن الفادي الذي دفع فديةً للآب، واحتمل الغضب ودفع ثمن خطية آدم.

وغاب من الوعي أنه لم يزل بيننا يشاركنا حياتنا ويُدخلنا في سر اتحاده بنا ويُشركُنا في بنوته ويقدِّمنا إلى الآب، ويمنح لنا روح الآب، ويحمل معنا جراحات خطايانا لكي تنال الشفاء، بل ويمزج حياته بحياتنا في العشاء السري، ولكن حتى العشاء السري ذاته دخل نفقاً آخر مظلماً عن حقيقة وجود الرب وحضوره الإلهي المتجسد وتقديم حياته لنا هبةً أبديةً غالبة الموت، وخبزاً ينزل من عند الآب (يوحنا ٦: ٢٣)، وأصبح عشاءُ الربِّ محاصراً في أروقة مدارس اللاهوت: حركة الإصلاح – مجمع ترنت – اللاهوت الشرقي، وتحول العشاء السري من اتحادٍ سريٍّ بالرب يسوع إلى جدلٍ عنيفٍ عن طبيعة الخبز والخمر، والإستحالة السرية، وتلك الجوهرية، والفرق بينهما كبير، ولكن عقولاً جاهلةً تعذَّر عليها الفهم أن ما هو سِرٌّ ***Mystery*** هو ما لا يخضع لمقاييس الحسِّ المنظور، هو ما هو غير مألوفٍ، لا ما هو ضد العقل المستنير بالمحبة الإلهية.

لكن لا زال الكلمة ربُّ الحياة يعطي رغم التفاف العقول حول الجدل وحول المصطلحات وحول الأفكار والتواريخ وصحة هذا وفساد ذلك ... فهذه كلها أدوات لا ترتقي بنا سُلَّم المحبة الذي منه نزل ابن الله إلينا وتنازل إلينا لكي يعطي حياته لنا.

الإتحاد الأقنومي والذبيحة:

إذا تنازلنا عن إرضاء العدل الإلهي –حسب مدرسة أنسلم، وباقي سلسلة تعليم العصر الوسيط– استطعنا أن نرى أن يسوعَ مذبوحٌ دائماً، هو ذبيحةٌ أبديةٌ، هو الذي قام من الأموات لكي يكون: "راعي الخراف العظيم ربنا يسوع بدم العهد الأبدي" (عب ١٣: ٢٠). حقاً نحن نقدِّم؛ لأن الرب نفسه قال: "اصنعوا هذا لذكري"، ولكن هذا التقديم ليس هو من طرفٍ واحدٍ؛ لأنه هو أيضاً المقدِّم؛ لأنه هو الكاهن الذي صار "ضامناً لعهد أفضل" (عب ٧: ٢٢)، "له كهنوت لا يزول" (عب ٧: ٢٤)، هو "خادمٌ للأقداس والمسكن الحقيقي الذي نصبه الرب لا إنسان"، فهو لا زال كاهناً يخدم (عب ٨: ١ – ٢). لقد جاء تقديم دمه بواسطته هو، لا بواسطة آخر "مرةً واحدةً"، "فوجد

فداء ابدياً" (عب ٩: ١٢). والفداءُ هنا ليس تقدمةً للآب كما شاع في العصر الوسيط، ولكنه تحرير وَفَكُّ أسر الخطاةِ عبر كل العصور، ولذلك بعد أن قال رسول الرب إنه قدَّم نفسه "بلا عيب"، "يطهر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي" (عب ٩: ١٤). وهنا عندما فَصَلَ العصرُ الوسيط عمل الكاهن في علية صهيون عن الجلجثة والقبر والقيامة، بات عملُ الرب أشبه بجُزُرٍ منفصلة نحاول عبثاً الربط العقلي بينها لأننا تحت إيحاء:

١– ارضاء العدل.

٢– فصل العلية في أورشليم عن الصلب والموت والقيامة.

٣– نسيان أن ما حدث في العلية هو استعلانُ الكاهن والذبيحة.

لقد تحوَّل الربُ في عقول المفكرين إلى أفكارٍ متباعدةٍ، ولم يعد الشخص الواحد الذي يقترب منَّا للشركة والعطاء الحر النابع من المحبة الأزلية.

الإتحاد الأقنومي بعد الصراع المرير مع النسطورية لا يسمح بتقسيم الرب إلى إلهٍ وإنسان. الذبيحةُ ليست دماً بشرياً يقدَّم، رغم أن مصدره هو الإنسانية التي صُلِبَت، ولكنه دم ابن الله؛ لأن قوة التقديم هي إرادة الابن الأزلية (عب ٩: ١٤)، هي الموت الطوعي. ولأن الإرادة لا تتغير ولا تتبدل، بل هي إرادة واحدة إلهية – إنسانية. كانت إلهية مثل تجسد رب المجد، ثم صارت إلهية – إنسانية بعد تجسده، ولذلك، القرار هو "مرةً واحدةً"، هو ذلك الفعل الإرادي الواحد الإلهي الإنساني السابق على الدهور حسب التدبير، والمعلَن في الزمان حسب التدبير. نعم "مرةً واحدةً" مثل قول الرب: "ليكن نورٌ"، مرةٌ واحدةٌ، موتٌ واحدٌ لربٍّ واحدٍ، وقيامةٌ واحدةٌ لمسيحٍ واحدٍ، وتقديمٌ واحدٌ: "خذوا كلوا هذا هو جسدي – هذا هو دمي".

الإتحاد الأقنومي والمحبة الواحدة الإلهية – الإنسانية:

دخلت الإنسانية في جوهر الثالوث متحدةً بلاهوت الابن؛ لأن الناسوت هو ناسوته، هو "جسده الخاص به"، هو حياته التي تخلَّى عنها بمحبة عندما "أخلى ذاته". والإخلاء مثل الموت "مرةً واحدةً"، ومثل القيامة "مرةً واحدةً"، بل هو طريق التجسد؛

لأن الإخلاء سمح بالموت والدفن، وسمح قبل ذلك بالاتحاد بطبيعة مختلفة تماماً عن طبيعة الله، عن "صورة الله"، ولن ينتهِ الإخلاء إلَّا يوم الدينونة، والنهاية هنا هي الوصول إلى الهدف والغاية، وهي أن يسلِّم الملك لله الآب (١كو ١٥: ٢٨)؛ لكي يكون "الله الكل"، أي لكي يملك الثالوث بملء مجده "في الكل"، في الخليقة الجديدة المفتداة، فهو يملك وسيملك.

لم يفقد الرب مشاعره وعواطفه ومحبته الإنسانية بعد أن دخل مجده. نرى ذلك بوضوح في الحوار بعد القيامة مع تلميذي عمواس: "أيها الغبيان والبطيئا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء .." (لوقا ٢٤: ٢٥). ويذكر معلمنا مرقس: "أخيراً ظهر للإحدى عشر وهم متكئون ووبَّخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قام" (مرقس ١٦: ١٤). والحوار مع بطرس بعد القيامة، والسؤال هل تحبني أكثر من هؤلاء؟ لا لكي يذكُر بطرس إنكاره المثلث؛ لأن الرب سأله ثلاث مرات (يوحنا ٢١: ١٥ وما بعده)، بل لأنه رئيس كهنة تألم مجرباً قال رسوله: "يقدر أن يعين المجربين" (عب ٢: ١٨) وفي تحديد أكثر وضوحاً يقول: "يرثي لضعفاتنا، بل مجربٌ في كل شيء مثلنا بلا خطية" (عب ٤: ١٦). لقد كمُل بالألم الذي ذاقه في أيام جسده (عب ٥: ٧)؛ ولذلك صار "سبب خلاص أبدي للذين يطيعونه"، أي الذين يسلكون معه ويسلك هو معهم ذات المعاناة (عب ٥: ٩).

المحبة الإنسانية ليسوع لم تختفِ وتذوب في المحبة الإلهية، بل وحدةُ محبةٍ إلهيةٍ — إنسانيةٍ — لأقنوم ابن الله المتجسد. ونفس الحقيقة خاصة بالإرادة الإنسانية الباقية إنسانية ممجدة في الأقنوم المتجسد؛ لذلك، الرأسُ متَّحدٌ بالأعضاء اتحاداً إلهياً — إنسانياً. قوة الاتحاد من إلوهية الابن الكلمة، ولكن ذات القوة وذات المحبة الإلهية للبشر التي لأقنوم الابن التي هي محبة لذاته وكيانه المتجسد. والجديد هنا هو **أن محبته لذاته هي محبة لذاتٍ متجسدةٍ، أي فيها الإنسانية.**

لم يتجسد الرب لكي يموت، كما هو شائع في أوساط غلاة الإنجيليين وبعض الأكليروس عندنا، بل تجسد ومات مصلوباً ولكنه قام، فلم يكن الموت لمجرد الموت هو غاية التجسد، بل الموت للقضاء على الموت، ولذلك يحيا الربُّ متجسداً إلى الأبد.

ولذلك يقول ذهبي الفم: "بكل وقارٍ اقترب من المائدة المقدسة حيث الذبيحة موضوعة، وهو المسيح المذبوح لأجلنا" (على الأعمال ٢١: ٥ مجلد ٦٠: ١٧٠ وراجع على رومية ٨: ٨ مجلد ٦٠: ٤٦٥)، فالموت الطوعي هو ما تعلنه الليتورجية، وهو مستحيلٌ بدون الاتحاد الأقنومي، ولذلك على الصليب نفسه حسب عبارات ذهبي الفم:

"الموت أُبيد.

القيامةُ مُنحت لنا.

أبوابُ الفردوس فُتحت.

صرنا أبناء الله" (على العبرانيين ١٧: ٣ مجلد ٦٣: ١٣١).

المحبة الإلهية المتجسدة هي التي تعطي لنا الجسد والدم، وعطاء العلية هو ذات عطاء القداس الإلهي؛ لأن المائدة واحدة، فالمقدِّم واحد، والكاهن واحد، والذبيحة واحدة. في العلية بالإرادة والنية، وعلى الصليب جهراً. وكما وزَّع هو في العلية، هو أيضاً يوزِّع في كل قداس، فالمسيح وحده له سلطانه الوحيد على جسده، ولذلك يُنشد القديس كيرلس عمود الدين في عظة فريدة على العشاء السري (مجلد ٧٧: ١٠١٧):

"هو يوزِّع جسده بالخبز،

ويعطي دمه المحيي بالخمر. يا للسر المخيف ..".

وفي عظة فخمة للقديس باسيليوس على ميلاد الرب بالجسد يشرح الاتحاد بين الطبيعتين في إجابة على سؤال:

> "وعندما تسأل: كيف لم يتدنس الله الكلمة ولم يلحقه الضعف البشري؟ وجوابنا هو: كما أن النار لا تشارك الحديد في صفاته لأن الحديد لونه أسود وبارد، ولكن عندما يُوضع في النار يأخذ الشكل الخارجي للنار، حتى أن الحديد يتوهج مثل النار، ولا تتحول النار إلى اللون الأسود. ويصبح الحديد حامياً ملتهباً ولا تفقد النار حرارتها. هكذا كما في جسد الرب قد شارك اللاهوت، ولكنه لم يعطِ ضعفات الجسد إلى اللاهوت"
>
> (نُشرت الترجمة الانجليزية في *St. Basilon Fasting and Feasts, SVP p29*).

"ولأن الذي يقدِّم هو المسيح فالتقدمة أو القربان هو المسيح نفسه
والمائدة في الكنيسة هي ذات المائدة في العلية"
(ذهبي الفم على متى ٥٠: ٣ مجلد ٥٨: ٥٠٧).

مجد الإنسان في يسوع المسيح هو الجرأة أو الدالة في طلب الله نفسه:

في الليتورجيات الأرثوذكسية كلها، استدعاء الروح القدس هو على المؤمنين وعلى التقدمة، ولذلك يقول ذهبي الفم:

"عندما ترى الروح القدس نازلاً بغزارة،
فلا تشك في مصالحتنا مع الله"
(عظة على يوم العنصرة ١: ٣ مجلد ٥٠: ٤٥٧).

"وبسبب مسحة المسيح في الأردن وخدمة المصالحة،
أصبح لنا الشجاعة أن نحتفل بالعنصرة في كل قداس؛
لأن القداسات هي استعلانات الروح القدس"
(عظة على العنصرة ١: ١ مجلد ٥٠: ٤٥٤).

"لأنه حيثما توجد الكنيسة،
يوجد الروح القدس (طبعاً الكنيسة هي شعب الله)"
(ذهبي الفم عظة على العنصرة ١: ٤ مجلد ٥٠: ٤٥٩).

لقد جاء الوسيط الرب يسوع، وهدم كل ما يمنع شركة الإنسان في الحياة الإلهية المتجسدة؛ ولأن الناسوت وحده لا يفعل شيئاً، بل وقد اكتسب طبع النار وصار يتوهج مثل لهب النار، أي اللاهوت، تجلى الرب على الجبل وأظهر مجده حتى قبل أن يُصلب ويقوم؛ لأن الصلب لم يقدِّم شيئاً كان الرب يحتاجه، ولا حتى القيامة المجيدة كانت هي حياته غير الخاضعة للموت، ولذلك قبل الموت وعند قبر لعازر قال: "أنا هو القيامة والحياة" وقبل ذلك في عيد فصح اليهود قال: "مَن يأكلني يحيا بي".

الاستعلان لا يضيف شيئاً إلى المتجسد رب المجد.

كهنوت الرب يسوع ودالتنا لدى الله:

يقول عمود الدين عن كهنوت ربنا يسوع إننا:

"نحن صرنا مقبولين لدى الله الآب لأن المسيح الكاهن هو الذي يقدِّمنا (كقربان) ولأننا بالمسيح صار لنا "الدخول إلى هذه الخدمة" (رو ٥: ٢) لأنه أسَّس لنا طريق الوجود الحقيقي، ودخل كسابقٍ لنا إلى قدس الأقداس (عب ٦: ٢٠)، ولأجلنا أظهر لنا الطريق الحقيقي"

(العبادة بالروح والحق ١٦ مجلد ٦٨: ١٠١٦ B).

ولذلك صار لنا الجرأة كما يقول غريغوريوس النيسي:

"الجرأة الكاملة لدى الله لأننا سررنا بظهوره لنا وجهاً لوجه"

(التعليم الكبير للموعوظين ٦ مجلد ٤٥: ٢٩ B).

"أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له":

لو كان الابن له المجد قد ردَّ إلينا الناسوت كما هو دون مجد ودون غلبة الموت، لو ظل جسده جسداً بيولوجياً غير مُمجَّدٍ؛ لوجب علينا أن نقول إن التجسد لم يحقق شيئاً، وإن الاتحاد الأقنومي قاصر على الرب وحده.

عندما سألت الكاهن الكبير المتنيح القمص أنطونيوس أمين عن سبب اختفاء موضوعٌ هو قلب ومحور التعليم المسيحي، وهو اتحادنا بالمسيح، ابتسم وقال لي: "يعني أنت عاوز تكون في المسيح إلى الأبد؟ ده كثير على السلطات الكنسية، وده كمان يجيب مشاكل لينا إحنا الكهنة في معاملة الشعب. يعني، لا بُد من الرفق والحنو والتواضع والمحبة؛ لأن كل واحد هو عضو في جسد الرب وده كثير علينا".

واضحٌ إذن أنه لا توجد أسبابٌ أخرى للإنقضاض على الليتورجية نفسها سوى إنكار محبة الله للخطاة. فقد حلَّت الخطية محل كل شيء، وصارت هي سبب تجسد ابن الله، لا صلاح الله. وصارت الخطية هي أساس التعليم عن الفداء والكفارة، لا تدبير الله السابق على خلق العالم (أفسس ١: ١ – ٣) الذي سبق فيه صلاح الله سقوط الإنسان. وهكذا جاء الهجوم على الآباء أنفسهم، وحَشَدَ الكذبُ كل ما لديه من حيَلٍ:

صحافةً تجيد الكذب وتخدع القراء بالألفاظ، وخرج من تحت العمائم الأسقفية اتهامات كاذبة بالهرطقات أو بالبروتستانتية أو بترويج فكر غربي، وصار اثناسيوس الرسولي نفسه محاصَراً في كنيسته لا يقوى على الخروج إلَّا في أوساطٍ معينة، بل قال أحد أساقفتنا عندما اقتبس طالب من القسم المسائي نصاً من القديس كيرلس الكبير: "لو كان كبير مكانش قال الكلام ده"، وكان الكلام عن اتحادنا بالمسيح المتجسد.

الاتحاد الأقنومي هو الذي فتح لنا باب الاتحاد بالثالوث، وهي كلمة الرب في يوحنا (أصحاح ١٧: ١ – ٢٦).

إن يسوع الكاهن والذبيحة لا يفارق الكنيسة، وهو دائماً معنا لأنه رأس الجسد الذي لا يمكن فصله عن الأعضاء، فهذا الاتحاد به جاء به التجسد، وأساسه في التجسد، وقوته في الصلب، وخلوده في القيامة؛ لأن إنسانيتنا فيه ومتحدة به بلا انفصال، ولذلك يقول رسول المسيح: "من الذي يفصلنا عن محبة المسيح .." (رو ٨: ٣٥). وإذ أزال الرب كل العوائق، صار اتحادنا به أبدياً وهو أيضاً "بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير"، فالمسيح لا يصبح بولس، وبولس لا يصبح المسيح، فهذا هو منهج الأوطاخية. ويسوع لا يصبح خاطئاً، ولكن الخاطئ يصبح باراً؛ لأن التبرير هو عطاء الله في المسيح (رو ٥: ١ – ٣). ولا يموت المسيح فينا، بل نحن نقوم فيه بعد موتنا معه في المعمودية (رو ٦: ١–٨)؛ ولذلك نحتفل نحن بأسرار الخلاص في الليتورجية.

دكتور

جورج حبيب بباوي

ديسمبر ٢٠١٣